المحاضرة السادسة والعشرون

الفصل الخامس: القياس العقلي

نشأة القياس العقلي وتطوره :

١/ الوظيفة الأساسية للاختبارات النفسية، هي قياس الفروق بين الأفراد، أو بين استجابات نفس الفرد في ظروف مختلفة.

٢/ المشكلة الأولى، التي أدت إلى نشأة القياس النفسي، الحاجة إلى وسيلة للكشف عن ضعاف العقول.

٣/ وعلى الرغم من أن القياس له تاريخ قديم، ربما يرجع إلى اليونانيين القدماء، حيث كان يستخدم في العملية التربوية، إلا أن نشأة القياس النفسي المعاصر يمكن أن تتبعها ابتداء من القرن التاسع عشر .

الاهتمام بضعاف العقول :

شهد القرن التاسع عشر اهتماماً واضحاً بالمتخلفين عقلياً والمرضى العقليين.

ومن زيادة الاهتمام بتوفير أساليب الرعاية المناسبة لهم، ظهرت الحاجة إلى وسيلة موحدة، يمكن استخدامها في التعرف على هؤلاء الأفراد وتصنيفهم.

فقد كان من الضروري التمييز بين المرضى العقليين، وهم أولئك الذين يظهرون اضطراباً انفعالياً قد يكون مصحوباً بتدهور في القدرة العقلية، وبين ضعاف العقول، وهم الذين يتميزون بتخلف عقلي لازمهم منذ الميلاد أو منذ الطفولة المبكرة.

ولعل أول تمييز واضح بين هاتين المجموعتين، ما نجده في كتاب من مجلدين، نشره الطبيب الفرنسي اسكيرول عام ١٨٣٨.

كما أنه ذكر أيضاً وجود مستويات متعددة ومتدرجة للضعف العقلي، تمتد على تدرج مستمر، ابتداء من الأسوياء، حتى أدنى درجات الضعف العقلي . وقد استند اسكيرول في هذا التمييز على المقاييس الشبيهة بمقاييس علم الفراسة، مثل شكل الجمجمة وحجمها ونسبتها إلى الجسم.

إلا أنه توصل في النهاية، إلى أن استخدام الفرد للغة يعد أفضل معيار لتحديد مستواه العقلي .

على النفس التجريبي :

لم يهتم علماء النفس التجريبيون الأوائل بدراسة الفروق الفردية، إذ كان هدفهم الكشف عن القوانين العامة التي يخضع لها كل الأفراد، بغض النظر عما يلاحظ بينهم من فروق.

ومن هنا كانوا ينظرون إلى هذه الفروق بين الأفراد، على أنها نوع من الأخطاء التجريبية ينبغي التقليل من أثرها بقدر الإمكان .

لذلك فقد حول قيام علم النفس التجريبي الاهتمام بعيداً عن دراسة الفروق الفردية، إلا أنه مع ذلك قد ساعد في نمو البحث العلمي، بما أثبته من أن الظاهرات النفسية يمكن أن تخضع للقياس الكمي، وأن هذا ضروري لنمو النظريات السيكولوجية، كما أن اهتمامه بالنواحي الحسية قد انعكس أثره على طبيعة الاختبارات النفسية الأولى كما سيتضح فيما بعد .

جالتون :

اهتم جالتون بالحاجة إلى قياس خصائص الأفراد الأقرباء وغير الأقرباء، فبهذه الطريقة فقد يمكن أن نعرف درجة التشابه بين الآباء والأبناء، أو بين الأخوة والأخوات، أو بين التوائم .

لذلك أعد جالتون بعض الطرق لقياس قدرات التمييز الحسي، مثل حدة الإبصار والسمع عند الأفراد، وكذلك قدراتهم الحركية وغيرها من العلميات البسيطة . وكان يعتقد أن اختبارات التمييز الحسي يمكن أن تستخدم كوسيلة للحكم على ذكاء الفرد، ذلك أن معلوماتنا عن العالم الخارجي

تصل إلينا عن طريق الحواس، كما أن ملاحظته عن البلهاء، من حيث أن ليدهم قصوراً في القدرة على التمييز بين الحرارة والبرودة والألم، قد دعم عنده هذا الاعتقاد .

كذلك يعتبر جالتون أول من استخدم مقاييس التقدير وطرق الاستفتاء وأسلوب التداعي الحر في أهداف متعددة . وكان إسهامه الكبير في أنه درس الخواص الإحصائية للفروق الفردية، وأوضح أن قياس ذكاء أي فرد لا يتم إلا بمقارنته بمتوسط ذكاء الآخرين . وكان أهم ما اكتشفه جالتون، أن الصفات العقلية المختلفة تخضع في توزيعها بين الناس للصورة الاعتدالية، بمعنى أن المستويات المتوسطة لأية صفة من الصفات هي أكثر المستويات انتشاراً، بينما المستويات العليا والدنيا أقل انتشاراً، وكان أول من استخدم المقياس الميئيني وكذلك الارتباط في دراسة الفروق الفردية . بذلك وضع جالتون القواعد الأساسية للبحث العلمي في الفروق الفردية.

كاتل :

يحتل جيمس ماكين كاتل مكانة بارزة في تطوير القياس النفسي، فقد كان أول من استخدم مصطلح " الاختبار العقلي "، عندما نشر مقاله عام ١٨٩٥، والذي وصف فيه مجموعة من الاختبارات التي كانت تطبق على الطلاب سنوياً، لتحديد مستواهم العقلي . وكانت هذه الاختبارات تطبق بطريقة فردية، وتشمل مقاييس للقوة العضلية وسرعة الحركة وحدة الإبصار والسمع وزمن الرجع وتمييز الأوزان وغيرها. فقد كان مثله في ذلك مثل جالتون، يعتقد أن قياس الوظائف العقلية يمكن أن يتم عن طريق قياس الوظائف الحسية البسيطة مثل زمن الرجع والتمييز الحسي. وقد فضل هذه الاختبارات نتيجة لأن هذه الوظائف يمكن أن تقاس بدقة، بينما كان إعداد مقاييس موضوعية للوظائف المعقدة يبدو أمراً مستحيلاً في ذلك الوقت .

على أن اختبارات كاتل، وما شابهها من اختبارات انتشر استخدامها في أواخر القرن التاسع عشر في المدارس والكليات، لم تثبت جدارتها عندما خضعت للتقييم.